بسم الله الرحمن الرحيم

(الدعوة الى الله بين اليسر والعسر في فكر منّاع القطّان رحمه الله)

في لقاء صحفي مع رئيس حزب الإخوان المسلمين في السّعودية طُلِب منه بيان شروط الدّعوة إلى الله التى يجب تحقّقها في الداعي إليه.

وتأثراً بالخلوة الصحفي من جانب، وبالفكر الموصوف "بالإسلامي" من جانب آخر لجأ إلى المبالغة والتّعسير والتّشديد، مخالفاً شرع الله لدينه ولعباده الصالحين (وخيرهم الدّعاة إليه على منهاج النبوة)؛ قال الله تعالى ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر﴾ في وصف أعظم مصادر شرعه، وقال تعالى عن هديه لعباده: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾، وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا" متفق عليه.

ولأن الدّعوة الى الله عبادة لا يجوز الحكم فيها بغير شرع الله في كتابه وسنّة رسوله وفقه الأئمة الأول، رأيت وجوب التنبيه على بعض أخطائه في اللغة والأحكام، والتّفريق بين الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وبين الفكر البشري مظنّة الخطأ:

١) لم يوصف الدّاعي الى الله في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا في كلام أئمة العلم في القرون المفضلة بأنّه "داعية"، وانما انتشر هذا الوصف في الأجيال المتأخّرة عندما اغتصب العلم والدعوة من لم يؤهّل لأيٍ منهما؛ قال الله تعالى في وصف أعظم الدعاة اليه: ﴿وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾، وتصحيح اللّغة من واجبات المسلم اذا تعلّق الأمر بشرع الله، فقد نهى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن تسمية العنب كرماً (متفق عليه)، ونهى عن قول: "ما شاء الله وشئت" كما صحّ من رواية أبي داود، ورد على خطيب القوم قوله: "ومن يعصهما فقد غوى" (رواه مسلم).

ولو قدّر العرب لغتهم حق قدرها لعادوا بها الى أصلها في الكتاب والسّنّة.

٣) لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا في كلام أهل العلم في القرون المفضلة وصف الداعي ولا الدعوة ولا العلم ولا العمل الشرعي بأنه "إسلامي" أو أنه "إسلامية" حتى جاء أهل الفكر في هذا العصر المتخلف بقلة علمهم وضعف اتباعهم فاخترعوا هذه الأوصاف لتستر نقصهم في العلم والعمل، بل لتتخذ وسيلة لتسويغ الفكر والتجارة والتحزب (أي التفرقة في الدين) باسم "الإسلام" افتراء عليه.

٢) اشترط داعي الفكر على الداعي إلى الله: "الفهم الشامل للإسلام في أصوله ومصادره ومقاصده"، واستدل على ذلك بقول الله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ مفسراً البصيرة خلافاً لأئمة التفسير - بأنها "شيء فوق العلم والمعرفة"، ولو أخذ الدعاة برأيه هذا لتوقفت الدعوة إلى الأبد؛ فمن ذا الذي يحيط بالعلم والمعرفة الشرعية فضلاً عما فوق ذلك لو جاز للمسلم أن يدعيه؟ وما هو مقياس ما فوق العلم والمعرفة لو وجد.

٤) أضاف شرطاً آخر تعجيزياً لا يمكن قياسه: "فهم روح الدين"، ووصف الدين "بالروحانيات" أجنبي عن الإسلام وترجمة حرفية لوصف أعجمي لدين باطل. وتقسيم الدين إلى روح وحس أو مظهر أو مادة اختراع آخر في هذا العصر من وسوسة الشيطان للبدع عن الوحي والركون إلى الفكر مثل تقسيم قبل هذا العصر إلى حقيقة وطريقة.

٥) أما أئمة التفسير فقد عرفوا البصيرة في الآية الكريمة بأنها الحجة والعلم والبرهان واليقين، وكل أمور يمكن قياسها ووزنها بميزان الوحي من كتاب الله وسنة رسوله وفقه أئمة الهدى بأمر الله.

٦) واشترط "المفكر" على الداعي إلى الله أن يكون "محيطاً بأحوال من يخاطبهم على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والنفسية وما يكون لديهم من مشكلات وآلام"، ولا أحسبني في حاجة إلى تأييد استحالة

تحقيق ذلك، ولو فرض أن أحد الدعاة أحاط بما يسمى علم الاجتماع وعلم النفس وبالطب على اختلاف فروعه فسينقصه علم الغيب وهو لله وحده.

٧) واشترط "المفكر" على الداعي الى الله: "أن يكون على معرفة كاملة بمتغيرات العصر، فلا يخاطب العصر الذي يعيش فيه بأحوال ومشكلات عصر سابق»، ومع استحالة القياس الثابت للمعرفة الكاملة، فإن هذا الشرط يناقضه سنة الله تعالى في ارسال خير الدعاة وقدوتهم: الرسل، ويناقضه سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في منهج الدعوة وتوجيه الدعاة: قال الله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقال تعالى: ﴿وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾، وبين الله عز وجل في أكثر من سورة أن كل رسول قال لقومه: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ بالنص أو بالمعنى، على اختلاف الزمان والمكان والحال، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسالته وأنهاها بأمر الله، وبعث دعاة بالتحذير من أوثان وأصنام القبور والمقبورين واتخاذها مسجداً، وهي أكبر كبيرة وموبقة ومعصية يواجهها الدعاة منذ نوح عليه السلام حتى اليوم. وثبت في صحيح مسلم من حديث ام هشام بنت حارثة رضي الله عنها، قالت: «ما أخذت ﴿ق والقرآن المجيد﴾ إلا من في رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كان يقرؤها كل جمعة على المنبر اذا خطب الناس»، رغم تغير الأحوال وكثرة الأحداث والطوارئ، ومن تتبع خطب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الثابتة عنه، وخطب خلفائه وأصحابه وتابعيهم وفقهاء الأمة في القرون المفضلة وجد أنها لا تعنى بالطوارئ والأحداث والتحليلات السياسية و«متغيرات العصر»،

لأن شرع الله (وخطبة الجمعة منه) لا يتغير بتغير الزمان والمكان والحال؛ ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح أولها، وأهم ما يهم المسلم في أي عصر: الاستعداد للموت وما بعده، وهو مضمون سورة (ق).
وإعداد المسلم لهذا المستقبل المؤكد يكون (في الدعوة إلى الله على بصيرة) ببيان التوحيد ونقيضه الشرك، ثم بيان أحكام الشريعة والموعظة عامة. وخطبة الجمعة عبادة توقيفية مثل كل عبادة، وهي قدوة الدعوة وأعلى درجاتها.

٨) وفرّق المفكر بين الخطبة والمحاضرة، وأكّد العناية بالعواطف والمشاعر بكلام صادر عن الفكر لا عن الشرع، قال الله تعالى: (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى)، ومن الهدى عرفنا العلم الشرعي والخطبة الشرعية وحلقة الذكر، ومن الظن والهوى جاءت المحاضرة وحديث العواطف والمشاعر ومتغيرات العصر والفقه بالتحليلات السياسية.
هدى الله الجميع، وردّهم ردّاً جميلاً إلى كتابه وسنة رسوله وفقه شريعته، وأعاذهم من نزغات الشيطان ونفسه. وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين.